

واقع النحو العربي ومشاكله

الدكتورة: فطيمة براهيم
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة سيدي بلعباس-الجزائر

ملخص:

نشأت اللغة العربية في أحضان جزيرة العرب خالصة لأبنائها، نقية سليمة مما يشينها من أدران اللغات الأخرى، ولبثت كذلك أحقابا مديدة، كان العرب فيها يغدون و يروحون داخل بلادهم على ما هم عليه من شظف العيش غير متطلعين إلى نعيم الحياة وزخارفها فيما حولهم من بلاد فارس والروم. وكان العربي في هذه البيئة النقية ينطق اللغة العربية الفصحى بسليقته، ويتعامل بها مع بني جلدته بفطرته التي جبل عليها دون تكلف، حيث كان الطفل يشب في هذه البيئة العربية الخالصة، فيسمع لغة سليمة خالية من الخطأ، فلا يكون من العسير عليه أن ينطقها كما سمعها، وإن يعبر بها عن خواطره ومشاعره في سهولة ويسر.

الكلمات المفتاحية: النحو العربي؛ اللغة العربية

إن السمع سبيل الملكات اللسانية، وليس أدل على هذه السليقة التي لا تعرف الخطأ من رد الأعرابي على من سأله: كيف أهلك - بكسر اللام -؟ فقال: صلبا، حيث أخطأ السائل فكسر اللام وكان الصحيح أن يضمها فيقول: كيف أهلك حيث أراد الاستفسار عن أهله وعياله.

ظلت اللغة العربية نقية متماسكة البنيان غير مشوبة بلوثة العجم، إلى أن سطع نور الإسلام على ما حول: «الجزيرة العربية بالفتوحات الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجا من فرس وروم، ثم تابعت الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين، فوصلت في عهد سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- شرقا إلى نهر السند وجيخون، وغربا إلى الشام ومصر...»⁽¹⁾. فكان من الطبيعي أن يهبط العرب، ومعهم عشائريهم إلى هذه الأمصار التي فتحوها.

وكان من أثر هذه الفتوحات أن اختلط العرب بغيرهم من أهالي هذه البلاد اختلاطا مستمرا في البيوت والأسواق والمساجد، و تصاهروا و اندمج بعضهم في بعض حتى تكون منه شعب واحد، واقتضى كل ذلك أن يستمع بعضهم من بعض، وأن يتفاهم في كل ما يتصل بهم، و لغة التخاطب الوحيدة بينهم في كل ما يحيط بهم هي اللغة العربية.

تظافرت كتب الأدب و التراجم و الطبقات على أن علم النحو كان يسمى بعصر "أبي الأسود الدؤلي" باسم (العربية). فقال "ابن سلام الجمحي" في طبقاته: «و كان أول من استن العربية، و فتح بابها، و أخرج سبيلها و وضع قياسها أبو الأسود الدؤلي»⁽²⁾.

كثر الحديث حول من وضع النحو بين المفكرين في ذلك الوقت، حيث يتضح أن مصطلح النحو لم يكن معروفا و لا متداول في زمن "أبي الأسود الدؤلي" و لا في عصر من جاء بعده من نخبة الطبقات، و إنما ما كان معروفا

و متداولاً هو مصطلح العربية ، ثم ظهر مصطلح النحو في أول مرة على لسان "الخليل ابن أحمد الفراهيدي" ثم أخذ في الذيوع و الانتشار على ألسنة العلماء ، حتى استقر و ثبت و أنيطت له مهمة ضبط اللغة ، وصيانتها من اللحن والفساد . ما يلاحظ أن النحو العربي الذي عرف قديماً وحديثاً تميز بالجدية والصرامة، لكن اليوم أصبح النحو وتلقينه للمتمدرسين من القضايا الصعبة التي تطرح اليوم ، وتستحوذ على تفكير الباحثين والمختصين في اللغة العربية .

هذه المعضلة المتعلقة بالنحو صارت واقع معاش في مختلف المستويات من مستوى التعليم الابتدائي إلى مرحلة التعليم العالي، حتى صار الخطأ هو الشائع والمعروف في النطق والكتابة أكثر من الصواب ، هذا الأخير الذي غاب عن الأنظار والحفاظ على سلامته اختصت بها فئة محدودة ومحددة فقط، هذا الواقع حمل معه مشاكل جمة. وبناءً على هذا الطرح حمل النحو العربي معه واقع كله هموم ومشاكل فيما تجلّى هذا الواقع؟ وما هي مشاكله؟.

تحاول هذه المقالة الإجابة عن تلك الإشكالية و أن تضع واقع النحو العربي في دائرته الحقيقية، وتتطرق إلى مشاكله التي جعلت من مادة النحو العربي من أصعب المواد.

قبل الوقوف على هذه الأمور ، لا بأس من تقديم تعريف بسيط لمفهوم النحو الذي عرف منذ القرن الثاني الهجري مصطلحاً دالاً على: «القواعد التي تحكم كلام العرب من الأعراب وغيره ، و الأصل فيه معجمياً الدلالة على القصد بوجه عام ليخصص بعد ذلك معناه المعجمي - شأن سائر المصطلحات - ليخص به هذا العالم»⁽³⁾.

والتعريف الأكثر شيوعاً واستخداماً هو: «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره»⁽⁴⁾.

ومع الاتفاق على النحو يدل على علم يحتذي كلام العرب ، فان تعدد التعريفات واختلافاتها قد نجم عنه تفاوت في المعنى الدقيق للمصطلح بين قواعد إعراب الكلام ، وكيفية تركيب الكلام تركيباً يحتز فيه عن الخطأ ، ويشمل هذا ما قد يقع في الكلام من تقديم و تأخير ووجوب رعاية ما عرف عن العرب من هيئات ذلك.

ويضاف إلى هذا : «النحو هو الذي يهتم بالعلاقة بين عناصر الجملة أي انه فينظم العلاقة بين أجزاء التركيب و مكوناته، فالنحو إذن شقيق الصرف لا يستغني أحدهما عن الآخر، بل لا يمكن فهم أحدهم من دون الآخر»⁽⁵⁾. و بناءً على ذلك فإن المشكلات النحوية لا تختلف عن المشكلات الصرفية التي يعاني منها متعلمو اللغة العربية.

جاء القرآن الكريم إلى العرب فوجدهم قبائل تختلف في لهجاتها و لكنه نظر الى ذلك الاختلاف نظرة أخرى فلم يعده لحناً أو خطأ لغوياً: «و إنما عده لغة لها أصحابها و كيافها، وكان من أثر تلك اللغات تعدد القراءات في الآية الواحدة و إقرار النبي صلى الله عليه و سلم على ذلك و أساس ذلك أن العربي منهم كان يتكلم باللغة سليقة و طبعاً قال قائلهم:

و لست بنحويّ يلوك لسانه و لكن سليقيّ أقول فأعرب⁽⁶⁾.

حاول العرب قديماً الحفاظ على سلامة اللسان من اللحن، لكن اليوم يوجد واقع آخر و هو أن هناك من يعتبر اللغة مجرد أداة للقول، أو وسيلة للتعبير و التباهي.

و أوضحت البحوث التي تتعلق باللغة أنها ليست هندام يلبس و ينزع في أي وقت و يستبدل بأخرى، و الحال مع اللغة لا يمكن تغييرها أو تطويرها حسب الأهواء الشخصية. بل هي أداة للمعرفة و التفكير و رمز و بهم تتجسد، و هكذا بقدر

ما تكون اللغة دقيقة و حية و بعيدة عن الفوضى يكون الفكر دقيقا و حيا: «بل إن علماء اللغة المحدثين اكتشفوا علاقة كبرى بين اللغة و بين الموقف السيكلوجي، حتى إنه لم يعد من وجود لعلم اللغة منفصل عن علم النفس»⁽⁷⁾.

إن هذا الحديث يجر إلى سؤال جوهري و هو هل النحو حقا صعب كما ترددده الألسن؟

إن المقياس الدقيق لصعوبة لغة أو سهولتها لم يوجد بعد، إذ تتداخل في تحديد هذا المقياس، عوامل عديدة يصعب الإمساك بها و جمع خيوطها ليكون منها قياس موضوعي معترف به: «و ما من سبيل لتلمس حقيقة لغة ما صعبة هي أم سهلة تلمسا علميا مقنعا، و إن لم يكن حاسما و نهائيا إلا بوضعها موضع المقارنة مع لغة أخرى»⁽⁸⁾.

تبدو اللغة العربية اليوم من أكثر اللغات التي تتميز بالحيرة و القلق بين أصحابها من خلال ولاء ماضيها العريق، و بين متطلبات العصر الحديث، فالنحو لم يبق معزول عن الدراسات الغربية، فكان لزاما عليه أن يعايش واقع عالم اليوم حيث يبلور ضمن نظرية: «بعض اللغات تجتمع اليوم حول قواعد نحوية مشتركة... فالنحو يدرس دراسة شكلية خلافا للنظام الدلالي-ارتباط اللغة بالمعاني-الذي يعتمد على معرفة السياق، و البيئة الاجتماعية، و الموروث الثقافي و الديني»⁽⁹⁾.

إن المطلوب هو السعي إلى توازن لغوي بين الماضي و الالتزام بالحاضر و لكن مشكلة المعاصرة هي المشكلة التي تواجه اللغة العربية على المستوى الثقافي فهناك تعددية الثقافة في البلدان العربية، وهذه المشكلة لم تنشأ من العدم و إنما خضوع البلدان العربية للاستعمار هذا من جهة و من جهة أخرى الأنظمة المختلفة التي كانت موجودة و الحق وجد بعض البلاغيين، و في مقدمتهم "عبد القاهر الجرجاني": «قد قفزوا بالقواعد النحوية قفزة نوعية خلصت النحو العربي من إसार الأحكام الوظيفية الجافة، و خرجت إلى فضاءات أكثر رحابة تمثلت في إجراءات تطبيقية تحليلية للنظم القرآني و كلام العرب؛ فقد تحول إلى دراسة أسلوبية تعبيرية تعنى بالمعنى أولا و أخيرا»⁽¹⁰⁾.

إن مشكلة اللغة العربية موجودة، وهي قابلة للحل، وهذا الأخير لا يعني التخلي عن اللغة العربية واستبدالها بالعامية أو باللغة الأجنبية: «إن النحو العربي قد أسس على الغرض الذي خلق منه اللسان وهو الإفادة؛ فغرضه لغوي محض إذ يجعل الاسم والفعل عمادين للحديث وهو ما يجري بين المتكلم والمخاطب...»⁽¹¹⁾.

وهناك من يربطون مشاكل النحو «بميدان الاضطرابات التي تصيب الإنسان في كلامه بسبب آفة في جهاز نطقه أو ما يسمى عند الأطباء الآن بالحبسة... والعجز في التركيب السليم في مستوى الكلام أو الجملة مع بناء الفهم...»⁽¹²⁾. يعني أن أخطاء النحو لا يقع فيها الأسوياء فقط بل حتى الذين يعانون من اضطرابات في النطق.

ويضاف إلى هذا واقع النحو كثر نظريات اللسانيات المعاصرة التي تناولته، ويتميز بعض الطلاب بالضعف من خلال عدم فهمها، يتناول علم النحو: «بنية الجمل اللغوية و أنماطها والعلاقات بين الكلمات، و أثارها، والقواعد التي تحكم تلك العلاقات...»⁽¹³⁾.

في مقابل مشاكل النحو، إلا انه توجد فئة تولي رعاية له لأنه: «صورة اللغة وبنيتها»⁽¹⁴⁾.

يشكل النحو قضية من القضايا المعاصرة التي أخذت حظاً من التفكير و: «هي هم يورق كل المعنيين باللغة العربية درساً وتدرّساً ونحسب أن ثم اتجاهاً سالباً نحو النحو من لدن كل عربي، وعلى الأقل من لدن الغالبية العظمى المتعلمين العرب»⁽¹⁵⁾.

وعند البعض أصبح النحو علم وهو: «يدرس التراكيب اللغوية أو الجمل أو العبارات من حيث قوانين الكلمات وأنواع الجمل، والعلاقات التركيبية بين الجمل»⁽¹⁶⁾.

أسباب تعليم النحو العربي:

-الحفاظ على النحو (صورته الموروثة) دون التجديد أو التصرف فيها.

-ندرة الدراسات التربوية .

-عدم وجود تنسيق بين هيئة التدريس واللغويين.

-عزل الدرس اللغوي عن بقية الدروس.

إن الغاية من تدريس النحو هي إقامة اللسان والابتعاد عن اللحن في الكلام ؟، فإن المتعلم إذا تحدث أو كتب لم يرفع منخفضاً ولم يكسر منتصفاً وان: «وان الغرض من تدريس النحو هو تكوين الملكة اللسانية الصحيحة، لا حفظ القواعد المجردة، فالعربي الأول الذي أخذت اللغة عنه ولم يكن يدرس ما الحال وما التمييز ولم يعرف الفرق بين المبتدأ والفاعل، فكل هذه الأسماء سماها مشايخ النحو عندما وضعوا قواعد اللغة تحفظها من اللحن»⁽¹⁷⁾.

يفسر تمام حسان الموقف من النحاة قائلاً: «إن النحاة حين قعدوا القاعد لم يأخذوا لهجة واحدة هي أفصح اللهجات ويدرسوها في مرحلة زمنية واحدة من مراحل تطورها، بل بدلاً من ذلك درسوا لهجات عربية متعددة ليستخرجوا منها نظاماً نحويّاً واحداً»⁽¹⁸⁾.

وتذكر بنت الشاطئ في هذا الصدد أن: «الظاهرة الخطيرة لازمتنا اللغوية هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعليم لغة ازداد جهلاً ونفوراً منها، وصدوداً عنها. وقد يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط فيخرج من الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه»⁽¹⁹⁾.

شعر النحاة قديماً بالعبء الملقى على عاتقهم و أرادوا أن يحملوه لغيرهم، فاصطدموا بالنفور، و تنبهوا إلى ضرورة التيسير على المتعلمين و خاصة النشأ الصغير حيث: «كان من نتيجة ذلك أن تعالت صيحات اليسير حيث ألفت قديماً مختصرات كثيرة في النحو ك: المختصر الصغير للكسائي، و مختصر الزجاج، و أبي حيان الأندلسي، و أبي علي الفارسي و غيرهم»⁽²⁰⁾.

و تواصلت الصيحات حتى العصر الحديث و في هذا الصدد عقدت الندوات و المؤتمرات من أجل تسهيل النحو العربي يقول إبراهيم مصطفى: «قد تغيرت الحياة وتغيرت العقول و أصبح النحو القديم تاريخاً يدرسه الاختصاصيون، ولم يبق بد من نحو ميسر قريب، لتفهمه هذه الملايين الكثيرة من التلاميذ»⁽²¹⁾.

لقد نصح "الجاحظ" معلمي اللغة العربية قائلا: «أما النحو فلا تشغل قلب الصبي منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش القول، و من مقدار جهل العوام في كتاب من كتبه و شعر إن أنشده و شيء إن وضعه، و مما زاد على ذلك فهو مشغله عما هو أولى به من رواية المثل و الشاهد و الخبر الصحيح و التعبير البارع».

يشكل قول الجاحظ دعوة إلى التركيز على الأمور الدقيقة و تناسي الأمور الأساسية ، و هذه الأخيرة هي التي تحفظ اللسان و تكفل له السلامة من اللحن.

و يضاف إلى مشكلات تدريس النحو بعض الأمور حيث يعتمد تدريس النحو على حفظ القاعدة بعد استنباطها ، إلا أن المردودية تبقى ضعيفة و من الأسباب نذكر ما يلي:

- كثرة القواعد المفروضة على التلميذ، حفظها يتطلب مجهود، مصيرها النسيان .

- هم المدرس إنهاء البرنامج دون مراعاة التحقق من إمكانية تطبيق القواعد عمليا من خلال نطق و كتابة التلميذ .

- عدم ربط النحو ببقية المواد (القراءة، التعبير، ...).

- نفور التلميذ منها (لأسباب اجتماعية ، نفسية، فروق فردية...).

- عدم الاستفادة من قراءات مجامع اللغة العربية .

- عدم الاستفادة من التقنيات الحديثة (مخابر الصوتيات ...).

و مهما قيل عن مشاكل تدريس النحو العربي فإن: «المشكلة الرئيسية تكمن في طريقة تدريس النحو العربي في المدارس ، والتي تركز أساسا على إتقان الإعراب ، واستظهار القواعد النحوية وحفظها غيبا...»⁽²²⁾.

وهذه الوعورة والصعوبة في النحو هناك وجه حملة إلى بعض أئمة النحو واقتصرنا على: «أولئك النحاة الذين أوغلوا في دقائقه ، و أسرفوا في جزئياته وتعسفوا في تعقيده حتى صار أقرب إلى منطق الفلسفة ... وهناك من امتدح أيضا النحو و أهله وتقوينا للسان وصيانة له من النحو»⁽²³⁾.

يرى أنصار القديم يرون انه لا تعلم اللغة العربية لا عن ريق ما اثر عن: «النحاة الأقدمين من قواعد إحكام ، وان كان الخروج عما خطه الأقدمون بحجة التيسير التخفيف يعد هدمًا وضياعا ... أما أنصار التجديد فيرون أن النحو عقبات وعثرات ، وان دقة قواعده تجعل المتكلمين بالفصحى دائمي الشك في صحة كلامهم ، عديمي الثقة بأنفسهم»⁽²⁴⁾. تلك هي نظرة خاطفة في بعض جوانب واقع النحو العربي وبعض مشاكله في اللغة العربية ، ومن الملاحظ أن النحو ليس بمشكلة مادام لسائر اللغات قواعدها، لا بل إن قواعدها أسهل من كثير قواعد بعض اللغات.

الهوامش:

1- صلاح رؤاي، النحو العربي نشأته ، تطوره، مدارسه، رجاله، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، مصر، 2003، ص 80.

2- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف، مصر، 1952م، ص 10.

3- إيناس كمال الحديدي مصطلحات النحوية في التراث النحوي في ضوء علم الاصطلاح ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، ط 1، 2006م، ص 148.

4- ابن منظور، لسان العرب، مادة نحو، المجلد السادس، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1410هـ- 1990م، ص 4317.

5- <http://www.arabic linguistics.Net/ub/Showthreadphp?t=90>

6- عبد الله السهيلي، نتاج الفكر في النحو، حقق و علق عليه عادل أحمد عبد الموجود و علي محمود المعوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط 1، 1412هـ- 1992م، ص 03.

- 7- حسام الخطيب، ملامح في الأدب و الثقافة، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1977م، ص357.
- 8- الفصيل، مجلة ثقافية شهرية، المملكة العربية السعودية، العدد 98، 1985، ص45.
- 9- إبراهيم خليل، في اللسانيات و نحو النص، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ-2007م، ص83.
- 10- عبد الجليل مصطفى، المعاني النحوية، مجلة اللغة و الاقتصاد، العدد الأول، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، رمضان 1426هـ-أكتوبر 2005م، ص68-69.
- 11- عبد الرحمن الحاج الصالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، الجزء الأول، موفم للنشر، الجزائر، 2007م، ص55.
- 12- عبد الرحمن الحاج الصالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، الجزء الثاني، ص57.
- 13- محمد محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط4، 2004م، ص16.
- 14- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة، الجزائر، 2000م، ص80.
- 15- محمد جاهمي، واقع تعليم النحو العربي في المرحلة الثانوية، كلية الحقوق و الآداب و العلوم الاجتماعية، جامعة قلمة، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة العدد 7، فيفري، 2005م، ص6.
- 16- حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2005م، ص62.
- 17- علي أحمد مذكور، تدريس فنون اللغة العربية، دار الفكر العربي، 1997م، ص321.
- 18- تمام حسان، اللغة العربية مبناها و معناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، دس، ص13.
- 19- عائشة عبد الرحمن، لغتنا و الحياة، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1971م، ص196.
- 20- علي أحمد مذكور، تدريس فنون اللغة العربية، مرجع سابق، ص326-327.
- 21- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1937م، ص61.
- 22- <http://www.alukah.Net>
- 23- نايف معروف، خصائص العربية، و طرق تدريسها، دار النفائس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ-1985م، ص179-180.
- 24- محمود السيد، قضايا اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت، دس، ص41.